نظرات فى اصلاح الريف

تأليف الأستاذ عبد الرازق الهمولى

للأستاذ على محمد سرطاوى

(١٤٣ صفحة ، مطابع دار الكشاف ببيروت — الطبعة الثانية)

هذا كتاب الموسم فى العراق ؛ تلقته النفوس المؤمنة بالإصلاح الاجتماعى ، باللهفة والغبطة ، والشوق ، كما يتلقى الثرى الكدود ، الجاف ، قطرات الغيث ، تهطل من جفون الغيوم ، فأعيد طبعه ، ولما تمضى على الطبعة الأولى ، غير بضعة شهور ، فكان ذلك تقديرا ، بليغا ، صامتا لرسالة الكتاب العظيمة

ومؤلف هذا السفر النفيس ، شاب فى طليعة شباب العراق طموحا ، وثقافة ، وتفانيا فى خدمة الهدف المجيد ؛ طوف فى الشرق والغرب ، فأفاد من ذلك تجارب ، لها قيمتها ، وخطرها ، وأثرها فى صقل مواهبه وتجاربه وتوجيههما التوجيه الذى ربط روحه بأرواح الملايين المعذبة من أبناء جنسه ، فى سبل الحياة ، فانعكست منهم على نفسه تلك المعانى التى تقشعر من هولها الأبدان ، مجسمة لأولئك البائسين ، فى مظاهر الجوع والمرض والجهل ، فكان هذا الكتاب تعبيرا صادقا عن هذه المعانى

درس الآداب متخصصا فى دراسته الجامعية ، وضرب بسهم وافر فيه ، وصال وجال فى ميادينه مؤلفا ، وكاتبا ، ثم مد بصره إلى آفاق القانون فحاق إلى أعاليها كالنسر الجرىء ، ثم راح يتدرج فى الخدمة المدنية من التدريس إلى التوجيه فى وزارة المعارف ثم إلى إدارة نقابات العمال فى مديرية العمل والضمان الاجتماعى ، وأخيرا استقر فى البلاط الملكى العامر ، مساعدا لرئيس التشريفات فى بغداد

والمعذبون فى ريف العراق ، هم أولئك الفلاحون الذين يؤلفون سبعين فى المائة من مجموع السكان ؛ يتضورون جوعا على مدار السنة ، ويحرمون عراة ، حفاة ، مرضى ، على الأرض التى يسخرون على زرعها بالإكراه ، كما تتحرك الأنعام ، التى لا تملك من أمر نفسها شيئا ، وإنما يملك أمرها صاحب الأرض الظالم ، ذلك الراعى ، الذى يذبحها إذا شاء ، ويجيعها إذا أراد ، ويبيعها متى أحب

ومن دواعى الاغتباط العميق ، والأمل الباسم ، أن يبعث الله إلى الظلام الحالك فوق دنيا هؤلاء المعذبين ، إقباسا من رحمته تشرق من قلوب طبقة من الشباب المتزن ، المؤمن بربه ، وعظمة أمته ، لا تعيش على هامش الحياة فى تلك الأبراج العاجية السخيفة التى يلجأ إليها ، عادة ، المهزومون من الحياة ، والذين لا يصلحون لها ، ولا تشعر بوجودهم فيها ، وإنما يضطرمون فى صميمها ، ويجاهدون أحداثها ، ويمدون أيديهم لإنقاذ الملايين من نفوس مواطنيهم ، التى يدفعها الجوع والمرض والجهل إلى تصديق كل ما تزيفه لها الحضارة الغربية من أوهام وأباطيل ؛ ويحولون بين أولئك المواطنين ، وبين الجرى وراء سراب الشيوعية الخادع ، ذلك السراب الذى يتراءى لأعينهم فى بيداء ظلم الحياة وعذابها ، ماء ، وما هو بالماء ... وإنما هو لعاب الشيطان تمكسه زبانية الجحيم على أجنحتها فى الفضاء ، تغريرا بالمغفلين

° ° °

وأصدرت المطابع الغربية كتبا كثيرة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، تحدثت فيها عن قصة الجوع فى الشرق الأوسط ، وعن الظلم الاجتماعى ، وما قد يجر وراءه هذا اللون من الاضطهاد والإرهاق للجماهير ، ومن كوارث يخشى منها على هدم هذا المجتمع التعس ، وحذرت المسؤولين وأنذرتهم باقتراب العاصفة ، وأوصيت بالقيام بإصلاح شامل سريع

ومن بين هذه الكتب المتعددة ، كتاب بالإنجليزية ألفته السير وارنر ، وقام بنشره معهد العلاقات الدولية فى بلاد الإنجليز تحت عنوان (الفقر والجوع فى الشرق الأوسط)

Food and poverty in The Middle East

والكتاب دراسة مركزة لمشاكل الفلاحين فى مصر وفلسطين وشرق الأردن ، ولبنان وسوريا والعراق ؛ قالت فيه

عن مصر ، إن العلاقات التي تربط الإنسان بالحيوان ، عن طريق الرحمة الإنسانية ، والشفقة الطلقة ، لا وجود لها بين مالك الأرض والفلاح هناك ، وحذرت من انفجار اجتماعي مفاجئ قد يعصف بالحياة عصفا عنيفا لا رحمة ولا هوادة فيه ، وأوصلتها دراساتها إلى وجود مليونين من الجائعين في مصر يجب نقلهم إلى العراق للعمل في الزراعة ، بحكم التشابه بين مناخ البلدين ، وبحكم الصلات المتينة من الدم واللغة والدين والجوار بين الشعبين ، ولكنها لم تجد ذلك العمل الآن ، لعلمها أن الفلاح العراقي يئن من ظلم أشد هولا ، وأرجأ ذلك العمل إلى ما بعد الإصلاح الاجتماعي الشامل الذي يجب أن يتم سريعا في العراق . .

ومضت تدافع في كتابها عن سياسة أبناء جنسها في مصر وفلسطين وشرق الأردن والعراق ، وعن أصدقائهم الفرنسيين في سوريا ، حينما عجزوا عن تقديم أية مساعدة لتلك الطبقات المعذبة في تلك البلدان التي حكموها حكما مباشرا ، أو غير مباشر ، مدة ثلث قرن من الزمن أو يزيد ، فزعمت في معرض دفاعها ، أن الطبقات الأرستقراطية التي ورثت النفوذ من الماضي ، كانت تحرض ، تلك الجماهير عليها ، عن طريق الوطنية الرخيصة ، الرعناء ، غير الواعية ، وتدفعها إلى الثورة ، فكانت والحالة هذه ، مضطرة إلى مهادنة تلك الطبقات ، وإطلاق يدها ، وإفساح المجال لها تعبث بهذه الجماهير ، وتظلمها وتسومها الخسف كما تشاء وتريد ، حبا في استتباب الأمن

ونحن لا نريد أن نصدق هذا القول ، لا لأنه بعيد الاحتمال ، بل لأن التجارب علمتنا أن نكون حذرين في كل ما نسمعه عنا من أقلام الغربيين ، ونشك فيه ، ونعتبره دفاعا باطلا عن الظلم الذي أصاب هذه الطبقات من أبناء جنسها ، وأصدقائهم الفرنسيين ونرى أن الفرص التي تتيح إشاعة العدالة ، والإصلاح الاجتماعي لم تكن في استطاعة الطبقات العربية التي أشارت إليها ، بحكم سوء التوجيه الخفي ، الذي لا تكاد تجهله المس وارنر ، وتعرفه الدنيا . .

وشيء آخر يراه القارئ المتأمل في ذلك الكتاب ؛ تلك هي الصورة التي رسمتها لشقاء الفلاحين ، فلقد كانت مشوشة ، غامضة ، بعيدة عن الواقع ، بعدا كبيرا ، إذا ما قارناها بتلك الصورة الرائعة التي رسمها الأستاذ الهلالي لأولئك المعذبين بألوان زاهية من دم قلبه ، وعواطفه وحبه العميق

وكلما قارنت هذه الصورة بتلك التي رسمها قلم المس وارنر ، وغيرها من كتاب الغرب لحياتنا الاجتماعية ، كلما ازددت إيمانا بأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه ، وكلما بدالي الضلال المبين الذي نسج في غمرة عقول لا تزال تؤمن بالغرب حتى في الحديث عن أنفسنا ، وعاب أحد أصحاب هذه العقول على المؤلف عدم رجوعه إلى المصادر الأجنبية في وصف حياة الفلاحين في العراق فكانت لفتة غير موفقة ، وزلة كشفت عمله في أعماق النفس ، تستحق السخرية العميقة من المتزنين

ونحن في سبيل الحديث عن الفلاح العراقي . إنما نتحدث عن الفلاح في كل جزء من وطن العروبة ، فلقد وحد الألم المشترك والعذاب الذي لا يحتمل ، والظلم الاجتماعي الذي لا يطاق ، بين قلوب أولئك المعذبين ، على بعد الدار ، ونأي المزار ، فكان الحديث عن أية طبقة منهم في أي مكان من الوطن الشامل ، إنما هو الحديث عنهم جميعا

* * *

العراق بلد زراعي ، ومساحته (٤٣٥) ألف كيلو متر مربع ، وعدد السكان فيه يقرب من خمسة ملايين ، وكان هذا العدد زمن العباسيين يزيد على أربعين مليونا . والأرض الصالحة للزراعة في الوقت الحاضر تبلغ مساحتها (٩٢) ألف كيلومتر مربع ، لا يزرع منها غير خمسها

وتقسم الأرض الزراعية إلى منطقتين : شمالية ، وهي الأرض التي تعتمد الزراعة فيها على مياه الأمطار ومساحتها (٤١) ألف كيلو متر مربع ؛ وجنوبية وهي التي تعتمد الزراعة فيها على مياه الأنهار ومساحتها (٥١) ألف كيلو متر مربع

ويتألف سكان العراق ، من البدو الرحل ونسبتهم العددية لمجموع السكان ثمانية في المائة ، وسكان المدن ، ونسبتهم العددية ، اثنتان وعشرون في المائة ، وسكان الأرياف ، وتبلغ نسبتهم سبعون في المائة

وتؤلف القرية في منطقة الأمطار الشمالية ، الوحدة الاجتماعية ، وكان فيها الفلاح على وجه العموم ، يتمتع بملكية

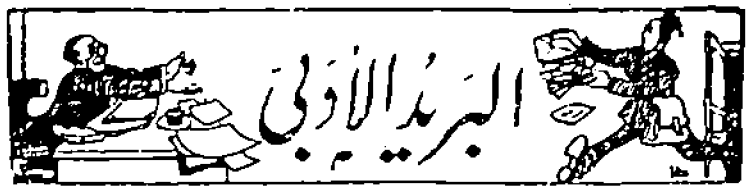

هل مات الأدب :

كتب الأستاذ سيد قطب مقالا بمجلة الرسالة عنوانه (هل الأدب قد مات) . وهذا التركيب ليس صحيحا ، أو على الأقل ليس فصيحا ، ذلك أن النحاة مجمعون على أن (هل) لها مزيد اختصاص بالفعل ، وأنه إذا كان الفعل فى جملتها اقترنت به ، ولا تقترن بالاسم ، فلا يقال عندهم فى الكلام الفصيح هل الأدب قد مات ، وإنما يقال هل مات الأدب

نعم تدخل (هل) على الجملة الاسمية الخالصة نحو قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) ؟ وقول الشاعر (هل الأعصر اللاتى مضين رواجع) والشواهد على ذلك كثيرة

ولعمد الذين التفتازانى عبارة مستملحة فى التفرقة بين دخولها على الاسم إذا كان خبره اسما ، وعدم دخولها عليه إذا كان خبره فعلا يقول : « قلت الفرق أنها — يريد هل — إذا رأت الفعل فى حيزها تذكرت عهودا بالحمى ، وحنت إلى الإلف المألوف وعانقته ، ولم ترض بافتراق الاسم بينهما ، بخلاف ما إذا لم تره فى حيزها فإنها تسلت عنه ذاهلة »

ويقول فى موضع آخر : وما ذكره صاحب المفصل من أن نحو هل زيد خرج على تقدير الفعل فتصحيح للوجه القبيح البعيد ، لا أنه شائع حسن

وحتى على ما يرى الزمخشرى لا تستقيم عبارة الأستاذ قطب ، فإن الكلام عليه يقدر هكذا ، هل قد مات الأدب ، لأن دخول (هل) على (قد) ليس بشئ

على العمارى

كلمة حول رسالة الأزهر :

لاجرم أن الذين يكتبون عن الأزهر فى هذه الأيام منصفون مخلصون ، يدفعهم إيمانهم بمكانته ، وفهمهم لحقيقة رسالته ،

صغيرة ، وشبه استقلال ، ولكن مرور الزمن ، جعل (المختار) أو (الأغا) مستبدا ، فاعتدى على الفلاحين ، واستولى على أراضيهم ، وسكتت السلطات ، وغضت الطرف عن هذا الظلم ، حتى غدا الفلاح عاملا مأجورا (الأغوات)

أما فى الجنوب ، فتتألف الوحدة الاجتماعية ، من القبيلة ، عاشت منذ زمن موغل فى القدم بحق المعيشة فى أراض واسعة ، يطلق عليها اسم (الديرة) ، وزعت الأراضى منها على الرؤساء ، والمشايخ ، وغدا أفراد القبيلة مزارعين عند هؤلاء ، لا يملكون شيئا . . .

وهذا النوع من الملكية فى المنطقتين المذكورتين ، ليس إلا لونا من ألوان الإقطاع البغيض ، يجعل لفريق من أبناء الأمة سلطانا على أرض الوطن وأبنائه ، مرتكزا على حق الوراثة ، أو حق الغزو ، أو حق العصيان ، وسلطان من هذا النوع ، لا يستمد قوته من إرادة الأمة ، ولا يوافق مصالحها ، ويجب القضاء عليه

وظيفة الفلاحين لا تتناول ما يكفيها من الأغذية المكونة للطاقة الحرارية ، أو المكسبة المناعة ، فهم فى شبه جوع دائم ، ويمكن القول أن ثمانين فى المائة من السكان لا تتوفر فى أغذيتهم المواد التى يحتاج إليها الجسم

وسوء التغذية يجعل الجسم عرضة للأمراض الفتاكة التى يشكو منها الفلاح العراق ، كالملاريا ، والبلهارسيا ، والإنكلستوما ، والرمد ، والسل الرئوى ، والزهرى ، والتراخوما

وعدد الأطباء فى العراق (٨١٦) طبيبا ، ويتركز منهم فى بغداد ولواؤها (٥٢٧) طبيبا ، وبقى لألوية العراق الأخرى البالغ عددها ثلاثة عشر لواء (٢٩٩) طبيبا ، ومن تحصيل الحاصل أن يزعم إنسان أن فى مقدور هذا العدد الضئيل ، مكافحة تلك الأمراض الفتاكة

(البقية فى العدد القادم)

على محمد سرطاوى